

طوق النجاة الخامس

نحن والآخرون

بين الكائن وما يجب أن يكون

obeikandi.com

**إن كان من حقك أن تكون أنت ، فإن من حقه أن يكون هو ، ولكن
ليس من حقك قهره ليكون أنت وليس من حقه قهرك لتكون هو ،
فالذات لا تتغير بالقهر وإنما بالمثل والقدوة .**

نحن والآخر بين الكائن وما يجب أن يكون

الإخوة الأحباب عشاق الوطن .. تناولنا معًا فيما سبق أربعة أطواق للنجاة تضمنت مجموعة من الرؤى الإصلاحية في المجالات الاجتماعية والتعليمية والدستورية والتنظيمية والاقتصادية ، وهى فى مجملها تمثل مجموعة من المكونات التى تتفاعل داخل إطار واحد ألا وهو ما نطلق عليه السياسة الداخلية .

وهذه الأطواق على تعددها وما أراه فيها ولها من أهمية قصوى ، إلا أننى أراها تظل قاصرة عن انتشال الأمة من غرق محقق فى دوامات العولمة بكل ما فيها من قهر ومذلة ما لم يتم تدعيمها ووصلها بإطار آخر أراه الأخير فى هذه السلسلة المترابطة من أطواق النجاة أو التى ينبغى أن تكون مترابطة كى تتحقق النجاة وإلا فلا .

ووصل لمن شاء بما ورد عالى ، حيث كتبت أن أطواق النجاة السابقة تمثل مجتمعة السياسة الداخلية وأنها بحاجة إلى تدعيم موصول بطوق آخر أخير أراه يتمثل فى السياسة الخارجية التى تتعدد مهامها ولكنها تبقى على تعددها نابعة من مصدر واحد هو المسئول عن رسم ملامحها وتحديد مدى حركتها وقدرتها على التأثير ، وهذا المصدر الواحد يتمثل فى علاقاتنا مع الآخر .

والآخر الذى أعنيه هو كل من يختلف عنا فى الدين أو اللغة أو كلاهما معًا ، وثمة فارق أكيد فى طبيعة العلاقة التى يمكن رصدها بين الدول التى تشترك فى الدين أو اللغة أو كلاهما

وبين الدول التى تشترك فى الإنسانية ، فبينما تكون الصلة والتواصل ميسورة وممهدة كلياً أو جزئياً حال وحدة الدين واللغة أو أيهما ، فإن الصلة والتواصل يبدوان أمراً عسيراً ووعراً فى غيبتها ومن هنا كان لزماً على الطرفين بذل المزيد من الجهد لإقامة جسور قوية ودائمة وممهدة للتواصل ، وهى لن تكون قوية ودائمة وممهدة مالم يتم تشييدها على أسس راسخة وحقائق صادقة يقبلها الطرفان ترجحاً بينهما .

وبداية فإننى لن أتناول الآخر بمعناه الأوسع المستوعب لكل من يختلف عنا فى العقيدة واللغة ، ولكننى سأتناول الآخر بعد اختزاله فى الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها ، وهو اختزال لن يخل كثيراً بالشمول لعدة أسباب أهمها :

(١) أن أمريكا هى رأس الكتلة الدولية التى تنادى بالعوالة ، والعوالة كما أفهمها تعنى أمركة العالم ، وأمركة العالم ليست كما يفهمها الساذجون من الحكام والمحكومين على أنها تعنى جعل العالم نسخة من أمريكا ، إذ أن أمريكا ليست بالساذجة التى تجعلها تسعى وتسعد بإيجاد منازع لها على قمة العالم حتى وإن كان من أقرب حلفائها ، لذا فإننى أفهم أمركة العالم على أنها تخليص العالم من معوقاته الثقافية والحضارية والعقائدية أى تخليصه من إرادته التى تحول دون قبوله الانضمام إلى قطيع العبيد والجوارى الذين يخدمون فى البلاط الأمريكى ، وبمعنى أعمق فإن أمريكا حققت من التقدم العلمى والتكنولوجى ما جعلها تطمح إلى إدارة العالم بالريموت كنترول من داخل البيت الأبيض بل وترى أن هذا حق لها .

(٢) أن هذه الكتلة الأمريكية هى التى تبنت استراتيجية وضع الأمة الإسلامية هدفاً ثابتاً لمرمى سياساتها الفوقية القمعية وهماً منها بأن عقيدة هذه الأمة تحرضها على معاداة الآخرين وإرهابهم .

(٣) أن الأمة الإسلامية رغم جراحها التى تنزف من طعنات الداخل والخارج فإنها لازالت أجهل وأضل من أن تعى مايجب علمه وعمله لمداواة الجراح وإيقاف النزيف .

من هنا أيها الإخوة كان من واجبى إتماماً لمنهج هذا الكتاب ومحاولة بلبلوغ أهدافه أن أتناول علاقاتنا مع الآخر بمزيد من العناية تفنيدياً لأباطيل ماهو كائن ووصولاً إلى ما يجب

أن تكون عليه هذه العلاقات .

وحيث إن العلاقات الناجحة ما هي إلا حالة تواصل بين طرفين — أو أكثر — وحيث أننا نهدف إلى التواصل فلا مناص من توفير مقومات النجاح لعلاقتنا بالآخر ، وأرى أن أهم هذه المقومات تتمثل في حتمية أن يتعرف كل طرف على حقيقة ملامحه وحقيقة ملامح الآخر وهو ما ليس بالواقع .

وأظنني أستطيع أنؤكد — آملاً من الكثيرين مشاركتي يقيني — بأننا جميعاً نرتدى أقنعة مزيفة وقبيحة ، وأنها لا تحمل منا ملمحاً ولا شبهةً ، وأنا نحن والآخر تبعاً لذلك بات كل منا ينظر إلى صاحبه نظرة ارتياب وتوجس واستنكار واحتقار دونما أن يحاول ولو لمرة واحدة أن يقف أمام مرآة صافية كي يرى فيها صورته المزيفة القبيحة التي يراها الآخر ، وهو يقيناً إن فعل فسوف يدرك ما لم يدركه من حقائق أهمها أنه ليس جميلاً كما كان يظن وأن الآخر له كل العذر في نظره المستريبة المتوجسة المستنكرة المحترقة ، لأن هذا هو الواقع .. وجوه مزيفة قبيحة لا تعبر بصدق عن حقيقة كل منا وعن حظه من الجمال الذي أبدعه الخالق وأرشدنا إلى ضرورة التمسك به ، ولكننا شئنا القبح قلباً وقالباً ، وشاء كل منا أن يمنحه صاحبه مالا يستحقه من قرابين الولاء وأشعار المدح والغزل ، وهو ما لم يحدث وما لن يحدث طالما تمسك كل منا بواقعه وموقعه من الآخر ومن نفسه ومن الحق ، وفي هذا المعنى ثمة حديث قدسي نصه كالآتي :

يقول الله تعالى : «يا بن آدم ما تنصفني ، أتحب إليك بالنعم وتتمقت إلى بالمعاصي ، خيرى إليك منزل وشرك إلى صاعد ، ولا يزال ملك كريم يأتيني عنك كل يوم وليلة بعمل قبيح ، يا بن آدم لو سمعت وصفك من غيرك وأنت لاتعلم من الموصوف لسارعت إلى مقته »

إذن فنحن أمة الإسلام نريد من الآخر أن يحترمنا وأن يحترم شريعتنا ، وهى أوهام لا حق فيها ، إذ أننا لا نحترم أنفسنا ولا نحترم شريعتنا ولا منطق في أن نطالب الآخرين بفعل مانحن أولى بفعله ، فالآخر — وهو على حق في هذا — يرانا أمة ضالة .. أمة يشيع فيها الفساد

وتفوح رائحته .. أمة أدمنت الديكتاتورية في مختلف أوجه الحياة حتى اختلت فيها موازين القيم فصارت الأصول فروعاً والفروع أصولاً .. أمة تكاد تنفرد بالتخلف والفقر والجهل وتعجز عن مواجهتهم .. أمة تقيم للعراة شواطئاً — فوق الأرض التي وصفها قرآنهم بالمقدسة

— كى يندسوها برذائلهم وخطاياهم المشفوعة بالعملات الحرة والعمولات القذرة..
أمة يكاد كبارها قبل صغارها يدمنون الخمر والميسر والرشوة .. أمة ترى مجدها وفخرها وعزها وعزتها في التهلل والتهليل للعاريات والساقطات وفي الانتصارات الوهمية التي يحققها أبطال ملاعب اللهو واللعب وفي الإغداق والجود على هؤلاء وأولئك من خزائن المال والنجومية والصدارة بل واعتبارهم ثروات قومية وتوائم للحضارة .. أمة عقت عن إنجاب أفاذ من البنائين الحقيقيين للحضارة وإن أنجبته تجاهلتهم وهجرتهم أو دفعتهم دفعاً إلى هجرها .. أمة أوهاهم لا وقائع فهي لا تعرف ولا تعترف من الزمان سوى بماضيه لأن حاضره لا يعترف بها ولا يكاد يعرفها .. أمة تقول مالا تفعل وتفعل غير ما تقول .. أمة لا تتوانى عن ادعاء السيادة حتى وهى تتسول مقومات البقاء .. وإجمالاً فهي أمة لا تمل مناشدة العالم أن يحترم شريعته وشرعيتها وقيمها وخصوصياتها وثقافتها وهى أول من يهدم كل هذا بل ويدفع ثمن الهدم للهادمين!!!!

إذن فالعذر كل العذر للآخر فى أن يرانا أمة قبيحة ، فهو يتعامل وفق ما ترى عينيه — وهما محقتان فيما تريان — فهذه هى صورتنا التى لا نعرفها لأننا لم نشأ منذ قرون طويلة أن نقف أمام المرأة لنرى ما يراه فينا الآخر ، ولنا عودة لتحديد ما يجب أن تكون عليه صورتنا ولكن بعد أن نصف للآخر ملامح صورته التى نراها ثم نقدم إليه النصيحة الصادقة دون التهادى دخولاً فيما يجب أن تكون عليه صورته ، إذ أرى أن حقوقنا تقف عند وصف ما تراه أعيننا وتقديم النصيحة لتبدأ حقوق الآخر فى تحديد ما يراه الأصلح لصورته .

إن الآخر كما أراه ليس جميلاً وإن كان فيه جمال !! وهذا ليس لغزاً ولكنه الواقع ، إذ أن الآخر فى ناظرى يبدو أشبه بإنسان ذى شقين لا يمت أحدهما للآخر بأية صلة ، فبينما يبدو نصفه الأيسر من أطراف القدم وحتى أطراف شعر الرأس فائق الحسن والجمال فإن نصفه

الأيمن يبدو من القبح إلى الدرجة التى تنفر منه العيون ، فبماذا يمكننا وصف هذا الإنسان ؟ أنصفه بالحسن ونظلم أعيننا ؟ أم نصفه بالقبح ونظلمه ؟ فى رأى فإنه لا حق فى هذا أو ذاك ، وإنما الحق الذى يجب أن يعلمه الآخر هو أن نصفه القبيح يجعلنا نستاء من رؤيته ولا نحبذ الاقتراب منه ، ولنا فى هذا كل العذر وللآخر علينا حق فى النصيحة الصادقة والتوضيح .

دعونا بداية نقرر أن الآخر هو المسئول الأوحد عما هو فيه من قبح منذ تبنى حياته نهجاً محدداً يقوم على مبدأ فصل الدين عن حياة السياسة وسياسة الحياة فيما يعرف بالتوجه العلمانى الذى يتوهم معتنقيه أن الحياة لا يمكنها النمو والتطور تحت مظلة سلطة الدين — وهى مغالطة كبرى — والحق أن الحياة لا يمكنها النمو والتطور تحت مظلة سلطة رجال الدين بينما من المؤكد أن بإمكانها النمو والتطور بل والبقاء الآمن تحت مظلة سلطة الدين ، إذ ثمة فارق هائل بين سلطة الدين وسلطة رجال الدين وهو نفس الفارق الذى يمكن استيعابه بين سلطة القانون وسلطة رجال القانون ، فبينما تعنى سلطة القانون أن للقانون سيادة على الجميع بمن فيهم رجال القانون فإن سلطة رجال القانون تعنى أن لهم سيادة على من سواهم من البشر بل وقد تمتد سيادتهم لتستعبد القانون ذاته ، لذا فإن سلطة الدين إنما تعنى اعتراف البشر بسلطة خالقهم عليهم وهى سلطة لا تجوز لبشر على بشر ، ويحضرنى حديث قدسى يحمل هذا المعنى ونصه ما يلى :

« إن رجلين كانا فى بنى إسرائيل متحابين ، أحدهما مجتهد والآخر مذب ، فجعل يقول: أقصر عما أنت ، فيقول الآخر : خلنى وربى ، حتى وجده يوماً على ذنب استعظمه ، فقال : أقصر ، فقال : خلنى وربى أبعثت على رقيباً ؟ فقال : والله لا يغفر الله لك أبداً ولا يدخلك الجنة ، فبعث الله إليهما ملكاً فقبض أرواحهما ، فاجتمعا عنده (أى عند الله) ، فقال للمذب : ادخل الجنة برحمتى ، وقال للآخر : أتستطيع أن تحظر على عبدى رحمتى ؟ فقال : لا يارب ، قال : اذهبوا به إلى النار »

وخروجاً من هذه الدائرة التى تحتاج إلى المزيد من إعمال الفكر واسترسال القلم ، وحيث إنها ليست بيت القصيد وإنما بيت القصيد هو الاستناد إلى ما اتفقت عليه جميع

الأديان من نقاط تتمثل في وجوب التزام محاسن الأخلاق واجتناب مساوئها ، إذ لن نجد ديانة تبيح الخمر والزنا والكذب والسرقة وخيانة الأمانة والعدوان والقتل وديانة أخرى تحرمها بل سنجد أن جميع الأديان حرمت سوء الأخلاق وأوجبت حسن الأخلاق .

والأخلاق كما أفهمها هي منظومة القيم التي يتم التعامل بها بين الأفراد والمجتمعات والدول ، وبالتالي فإننا مستندين إلى ذلك يمكننا التأكيد على أن الأديان نزلت لتنظيم حركة الإنسان في مختلف أوجه الحياة وليس داخل دور العبادة فقط كما يدعى معتنقو العلمانية ، إذ أن الأديان لو كان الهدف منها هو ما يؤدي من شعائر عبادة في المعابد والكنائس والمساجد لاقتصرت في الإباحة والتحرير على ما يأتيه الإنسان من أقوال وأفعال داخل حدود هذه الدور فقط وبحيث إذا ما تجاوز الإنسان هذه الحدود كان له مطلق الحرية في أن يأتي ما شاء من أقوال وأفعال حتى وإن نزلت به إلى قاع الحيوانية بل وتجاوزتها بإتيان ما يعف عنه بنى الحيوان من أفعال كاللواط والسحاق وشرب الخمر مثلاً ، وهذا بالقطع غير وارد في حق الأديان التي نعلم منها أن ثمة آخرة سيحاسب فيها الإنسان عن أفعاله في الدنيا ، والدنيا ليست قاصرة على دور العبادة وإلا فبماذا نسمى حياتنا خارج هذه الدور؟!

إذن فالأديان هي مظلة للحياة في كل مناحيها ، ومن الخطأ الكبير فصلها عن الحياة أو فصل الحياة عنها وهو ما فعله مؤيدى مبدأ العلمانية التي أفرزت للحياة الاجتماعية مزيداً من الجرائم والانحطاط الخلقي والردائل والتفكك الأسرى والتفسخ الاجتماعى وما صاحب هذا وذاك من شيوع الأمراض النفسية بكل مسمياتها ورغم الحضارة المزعومة والتي نتباهى بمظاهرها الخادعة والمتنافية مع فطرة الإنسان ذاته في يقينه بأنه المخلوق الأسمى والأرقى ، ووصولاً إلى إشعال الحروب وإشاعة الدمار والخراب وانتهاك الحرمات ، وهي سقطات أخلاقية لن يتسنى للعالم تجنبها لا بتشريع المزيد من مواد القانون الدولى ولا بإقامة محكمة عدل دولية ولا بدعم وتدعيم شرعية الأمم المتحدة بكل مؤسساتها ، لأن هذه الجهات جميعها سوف ترضخ في نهاية المطاف لإرادة القوة مالم يتم تنمية احترام الأديان واحترام خالقها في الضمير الإنسانى باعتبارها الضامن الوحيد والأكيد لسيادة قيم الحق والخير والجمال فوق قيم الغابة .

إذن فالأديان لا تقتصر في أوامرها ونواهيها على دور العبادة فقط وإلا لكانت تحمل في طبائتها أعراض الشيزوفرينيا والازدواجية ، إذ أنها تنهاك عن الزنى داخل المعبد والكنيسة والمسجد ولكنها تبيح لك بمجرد مغادرتها أن تزنى بل وأن تأتى اللواط والسحاق باعتبارها من حقوق الإنسان .

ليست الأديان هكذا وإن كانت هكذا فمن المنطق والعقل ألا نعتنقها وألا نؤمن بخالقها ، ولكن الحق أنها ليست هكذا ولكننا جعلناها هكذا زيفاً وبهتاناً كى نبرر لأنفسنا سوء أخلاقنا وكى نخدر ضمائرنا عن مساءلتنا ، وأرى هذا التبرير والتخدير هما فى الواقع أكبر دليل على أننا نعلم أننا على خطأ كبير وهى مصيبة كبرى ولكن ثمة ما هو أكبر منها حيث إننا قد نعجز عن فهم الأديان فهماً صحيحاً أو قد نفهمها ولكننا نتمادى تجاهلها وتحريف مرادها ثم قد لا نكتفى بهذا وإنما نتمادى نقلها أو ترجمتها للآخرين وفق أهوائنا فيسود الفهم الخاطئ وتتوارثه الأجيال جيلاً بعد آخر حتى يصير الخطأ عقيدة لا يجوز تصحيحها أو مجرد مناقشتها باعتبارها الحق وما هى من الحق فى شىء لأننا حينما نفعل هذا نكون أشبه برجلين لا يعرف كل منهما لغة الآخر فجاء بثالث يجيد اللغتين وافترضاً فيه الأمانة ولكنه خانها حين قال الأول للثانى إننى سعيد بلقائك فما كان من الثانى إلا أن نظر للثالث كى يترجم له مقولة الأول وإذا به يقل له إنه يقول لك أنه مستاء من لقائك فما كان من الثانى إلا أن بصق فى وجه الأول — وهو فعل لا يحتاج إلى ترجمة — ثم ما كان من الأول إلا أن لطم الثانى على وجهه — وهو فعل لا يحتاج أيضاً إلى ترجمة — ثم ما كان من الثانى إلا أن أخرج مسدسه وأفرغ طلقاته فى قلب الأول فأرداه قتيلاً ثم أعدم على جريمته وظل الجانى الحقيقى حراً طليقاً لم تدركه عدالة الأرض ولكن ثمة عدالة أخرى لا يجب أن ننساها ولكننا ننساها بالفعل كما ننسى الأمانة .. الأمانة أيها الإخوة .. إنها الرسالة الكبرى التى سيسأل عنها من يعلم ومن لا يعلم .. فأما من يعلم فهل أداها أم لم يؤدها وأما من لا يعلم فهل جد فى طلبها أم تقاعس عنها.. فىلى متى؟؟ إلى متى أيها الأحياء؟؟ ألن تموتوا كما مات من قبلكم؟؟ وماذا بعد الموت؟؟ إننا بحاجة إلى ما يغشنا مما بعد الموت وهو فى كل الأحوال لن يكون اتباعنا للعلمانية من دون الحق الذى أتتنا به الأديان !!

لقد أخطأ الآخر إذن في توجيهه العلماني الذي يرسخ في الإنسان خشية القانون لا خشية الله ، رغم أن القانون هو منتج بشري لا يفترض فيه الكمال لنقص من أنتجه ، من هنا كان لابد من تعديله بين الحين والآخر ثم تعديل التعديل ثم العدول عن التعديل والمعدل إلى قانون آخر عساه يتغلب على ثغرات الأول وهو ما لم ولن يحدث لأننا بشر ولا نملك كمال القدرة أو شمول النظرة ولكننا في غيبة الأديان عبيد لأهواء نفوسنا وأهواء نفوسنا هي عجينة من الصلصال في يد الشيطان الذي بمقدوره أن يوهننا بأن العلمانية هي التقدمية وأن التقدمية هي الحضارة وأن الحضارة هي مانحن فيه من تخبط وضلال وضياع وهي الضمان لممارسة الحريات ، الحريات التي تبيح الحرمات وتنهى عن الفضيلة كما نرى في الأزمة الشيراكية الفرنسية تجاه الرموز الدينية

التي تعنى أول ما تعنى بمحاربة الحجاب في المدارس الحكومية الفرنسية داخل فرنسا وخارجها.. لماذا لست أدرى؟! أليس الحجاب فرض إسلامي بل ومسيحي وإن لم يكن أليس فضيلة أخلاقية؟! وإن لم يكن أليس حرية شخصية تدخل في قائمة حقوق الإنسان التي يتشدق بها الغرب العلماني؟! وإن لم يكن أفلا ترقى في أبسط الحالات إلى حقوق الإنسان في ارتداء أزياء الجنس والخلاعة والسقوط وإتيان كل المحرمات؟! فما بالنا أن الحجاب فريضة وأن السيد شيراك بتوجهه هذا إنما يجسد صورة من صور التعصب والعنصرية الدينية التي قد تؤدي إلى فتنة طائفية لا يعلم مدى آثارها وتطوراتها إلا الله ، إذ من الطبيعي أن كل مسلم ومسلمة بل وكل معتنق لقيم الحق في فرنسا وخارجها سوف يتساءل : لماذا يصير شيراك على حظر الرموز الدينية — أو ما يعتبره رموزاً دينية — بها فيها الصلبان الكبيرة!! إذ ماذا يعنى لفظ الكبيرة؟! وهل معنى هذا أن الصلبان الصغيرة ليست رموزاً دينية من وجهة نظر شيراك وبالتالي فهي لا تدخل في دائرة الحظر؟! ثم ماهو المقياس الذي نحدد به إذا ما كانت الصلبان كبيرة أم متوسطة أم صغيرة؟! ثم ماذا عن مختلف المظاهر والسلوكيات الأخرى التي تدل على ديانة صاحبها كالصلاة والصيام أو حمل مسبحة أو حتى الأسماء الشخصية؟! أم أن السيد شيراك ينوى مستقبلاً منع الصلاة بالمدارس ومنع الصيام ومنع كافة المظاهر التي قد تكون ذات دلالات معينة وتغيير أسماء الطلبة والطالبات ذات

الدلالات الدينية وابتكار أسماء علمانية لم يسبق للبشر من كافة الديانات التسمي بها وفرضها بالقانون؟! ثم لماذا يصير السيد شيراك على توجهه هذا في المدارس الحكومية فقط؟! وهل يعنى هذا أن المدارس غير الحكومية وكافة المؤسسات الأخرى من حقها ألا تحترم علمانية الحظر وألا تعمل بها؟! إنها لمأساة كبرى لا راد لها إلا أن يتراجع شيراك عن توجهه هذا وأن يعلن للعالم أنه تسرع فعلاً وقولاً ، لأنه إن لم يفعل فكأنه يعلن للعالم أن العلمانية – وهو أعلم بها منى – هى مذهب عنصري متخلف ورجعى وغير صالح للتطبيق فى أى مكان وزمان ..

ولقد أخطأت فرنسا بعلمانيتها وكانت مستحقة لنقدنا الغاضب ولكننا أيضاً مستحقين لما أبدته حيال نقدنا من عدم اكتراث ولا مبالاة لأننا فى الكثير من أوطاننا الإسلامية نحظر ارتداء الحجاب فى العديد من الأماكن والمجالات ، لذا فإنه من موجبات الخجل أن نتنقد غير المسلمين بحظر الحجاب.

إذن فالحق أننا كبشر غير مؤهلين لوضع كتالوجات لأنفسنا التى لم نصنعها كما أننا مازلنا وسنظل نجهل الكثير والكثير من أسرارها وخفاياها وخباياها ، فنحن صنعة خالقنا ومن البديهي أن يكون الصانع أدرى بصنعبه ، أما القانون فمن ذا الذى يدعى له الكمال ومن ذا الذى لا يعلم أن البشر يمكنهم مغافله والتحايل عليه وتجاوز عقوباته بسلطان المال والجاء؟! إن كل ما نحتاجه نحن البشر كى نصصح مسارنا ومسيرنا هو أن نرى حقيقة أنفسنا لتكون البداية .

أما وقد أديننا ما للآخر علينا من حق النصيحة الصادقة فمن واجبنا تجاه أنفسنا وتجاهه أن نسجل له كل التقدير والإعجاب عما يملكه من جمال وحسن فى نصفه الأيسر والذى يتمثل فيما حققه من تقدم علمى وتكنولوجى هائل بجده واجتهاده لا بعلمانيته لنعود بعدها إلى حيث أمتنا الإسلامية والعربية التى تنفرد فى أغلبها إن لم تكن جميعها بقبج نصفها العلمى والأخلاقي ، عودة أقف بها معكم أمام المرأة كى ننزع ما فوق وجوهنا من أقنعة مزيفة وقبيحة لنقف بعدها فى ذهول قد يعقبه الندم من فرط ما سنرى من جمال الحقيقة التى حرمننا منها أنفسنا قرونًا طويلة وحرمننا الآخر من رؤيتها .

نحن أمة أوجب عليها خالقها وخالق كل شيء أن تلتزم كل قيم الحق والخير والجمال ولكنها التزمت كل قيم الباطل والشر والقبح فتوهم الناظرون إليها أن هذا هو الإسلام .. دين التخلف .. دين القهر والعدوان .. دين الظلم والجهل .. والحق أننا المسئولون عن نظرة الآخرين لنا وعن ظلمهم لشريعتنا التي تحملت نيابة عنا من التهم ظلماً وبهتاناً ما هي أبعد عنه بعد السماء عن الأرض .

إن ما تم توجيهه إلى الإسلام من تهم ظالمة تحتاج لتفنيدها إلى كتاب مستقل — جارى الإعداد له بمشيئة الله — ولكننى سأكتب بتفنيد أكبر وأخطر هذه التهم ألا وهى أن الإسلام يحض معتنقيه على معاداة الآخر وإرهابه ، وتجدر الإشارة إلى أن رد هذه التهمة سيكون من آيات القرآن ذاته ، حيث تبين لى أنه لا توجد فى القرآن آية واحدة تحمل مايرر هذه التهمة بل العكس هو الصحيح ، حيث يتضمن القرآن العديد من الآيات التى تنفى وتتنافى مع هذه التهمة الظالمة ، وقد رأيت أن أكتفى ببعض هذه الآيات على سبيل التوضيح والإثبات ، فهى دعوة إلى كل من شاء الحق أن يقرأ ما يلى :

(١) الآيات أرقام ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ من سورة البقرة ويقول فيها الله جل جلاله :

﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٢ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝ ٣ ۝ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ ٤ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ ٥ ۝ ﴾

وأفهم من الآيات أن الله جل وعلا يقرر أن القرآن الكريم هو كتاب نزل بالحق من الله وأنه يهدى المتقين إلى ما فيه رضوان الله ، ثم انتقلت الآيات لتبين لنا بعضاً من سمات المتقين فأفادت بأنهم يؤمنون بالغيب وأنهم يقيمون الصلاة وأنهم يؤتون الزكاة والصدقات مما رزقهم الله وأنهم يؤمنون بالقرآن وما نزل قبله على جميع الأنبياء والمرسلين ، وأنهم يعتقدون يقيناً فى أن وراء الحياة الدنيا حياة آخرة فيها ثواب وعقاب جنة ونار بحسب أعمالهم فى الدنيا ، لذا فإن الله يعدهم فى نهاية الآيات بأنهم إن فعلوا كانوا على طريق الهداية التى أرادها الله لهم وأنهم تبعاً لذلك سينالون حسن ثواب الآخرة .. ومن الآيات نفهم أن

المتقين (وهم أهل درجة من الدرجات العليا) من سماتهم الإيثار بالأديان السابقة .. أى أن المسلم الحق لا ينكر على أهل الكتاب كتابهم الصحيح الذى أنزل على أنبيائهم ورسلمهم .

(٢) الآيات رقم ١٩٠، ١٩٢، ١٩٣ من سورة البقرة ويقول فيها الله تعالى :

﴿ وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْمُعْتَدِينَ ﴾

﴿ فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

﴿ وَقَتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى
الظَّالِمِينَ ﴾

وأفهم من الآيات أن الله جل وعلا يأمر المسلمين بأن يقتتلوا من اعتدى عليهم وألا يكونوا البادئين بالعدوان ، بل إنه جل وعلا يحذرهم من العدوان على من لم يبدأوا بقتالهم باعتبار هذا العدوان يوجب كراهية الله لهم ، بل إن الله في آية لاحقة يحثهم على إيقاف القتال إذا بادر من اعتدى عليهم بإيقاف إطلاق النار ، ثم يؤكد ذلك في الآية التى تليها مشيرًا إلى أن القتال أحياناً يكون ضرورة يحتملها ظلم الآخر وعدوانه على المسلمين لإسلامهم ، إذ أفهم من ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ أنه تعالى يعنى الدين فى عموميه ولا يخص الإسلام وإنما لكونه يخاطب المسلمين فإنه شاء لهم القتال دفاعاً عن دينهم إذا اعتدى عليهم الآخرون مستهدفينه ، إذ أن الدين لله وليس من حق أمة أن تعتدى على أمة لإكراهها على دين معين، خاصة وأن الله فى موقع آخر قال ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ وفى موقع ثالث حث الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول للكافرين بالإسلام ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ صدق الله العظيم

(٣) الآية رقم ٦١ من سورة الأنفال ويقول فيها الله تعالى :

﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

أفهم أن الآية تحمل أمراً من الله جل وعلا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبالتالى فهو أمر إلى أمة الإسلام إلى أن تقوم الساعة بأن يقبلوا الحياة فى سلام مع الآخرين

وأن يحترموا المعاهدات والمواثيق بصرف النظر عن موازين القوى وإلى أى الفريقين تميل فبمجرد أن يصدق الآخرين في رغبتهم بإقامة السلام فنحن مأمورون بمسألتهم ، ولكننى أفهم السلام في الإسلام على أنه سلام أمة وليس سلام دول ، بمعنى أن يعم السلام كل أقطار الأمة وألا يكون سلاماً مجحفاً للحقوق ، وبتعبير اليوم أن يكون السلام عادلاً وشاملاً .

(٤) الآيات رقم ٤٦ ، ٥٢ من سورة العنكبوت ويقول فيها الله عز وجل :

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾
 ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

أفهم من الآيتين أن محاوراة أهل الكتاب هي أمر مشروع وأنا مأمورون بأن نحاورهم بالتي هي أحسن أى ملتزمين حسن الخلق .. حريصين على المودة من منطلق إيماننا بكل الرسالات والرسول وعملاً بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « من آذى ذمياً فقد آذانى » ، ومن منطلق أن الله هو الشاهد علينا وعليهم وهو الحاكم بيننا وهو الفاصل بين الحق والباطل ، وأفهم أن الحكم والفضل ليس مفوضاً للبشر لكى يفرضوه بالقوة وإنما الأمر كله مرده إلى الله ، ولكننى أفهم كذلك من الآيتين أن الله حريص على كرامة وعزة المؤمنين وأنه أمرهم بالمودة والحسنى مع من لم يظلمهم .

(٥) الآيات ٨ ، ٩ من سورة الممتحنة ويقول فيها الله عز وجل :

﴿ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

وأفهم من الآيتين الكريمتين أن الله يؤكد على ما سبق وأباحه للمؤمنين في علاقاتهم بأهل الكتاب من الحرص على المودة وإقامة العدل وعدم التمييز العنصرى بين

المسلم وغير المسلم في أى منحى من مناحى الحياة مالم يبادر بظلمنا وقتالنا دون وجه حق لأنه إن فعل حرم علينا موالاته وحسن معاملته وهو أمر منطقي في حق من يعتدى علينا ظلماً.

ثم دعونى أختتم بآية قرآنية أراها مسك الحتام رغم كونها خارج منهج هذا الكتاب ، فقط أردت أن أختتم بها لما أجده في نفسى من متعة فائقة كلما قرأتها ، إذ لا أكاد أنتهى منها في كل مرة إلا ووجدتنى أردد في غير تعمد لفظ الجلالة ((الله)) الله أيها الإخوة .. الله أيها البشر .. فإلى الله في سورة النور الآية رقم ٣٥ حيث يقول جل وعلا :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُوتٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ﴿٣٥﴾ صدق الله العظيم